الصَّيدُ الأخير

قصة بقلم
محمود دياب

في زاوية ما ، من اعماق الرجل ، كانت ترقد سمكة .. «اروسة» عظيمة ، بلغ وزنها حين وزنها عشرين كيلو وربعا بالتمام . ومع ذلك فهي ترقد هناك طيبة ، ساكنة ، مستسلمة ، لا تحرك زعانفها او ذيلها ، ولا تثير المضايقات . كثيرا ما ينسى الرجل وجودها ، ويحتويها الظلام أياما . ثم اذ هي تعلن عن نفسها على غير انتظار ، تومض في الظلمة فجأة ، حيث هي ، كأنما اكتسى قشرها لوهلة بطبقة من الفوسفور ، فينتفض جسمها مع خفق قلب الرجل ، وتضرب بذيلها ضربة مباغتة ، ثم تهدأ اخيرا . انها ما زالت حية هناك ... وان كانت تتظاهر بالموت ..

يحدث ذلك ، غالبا ، وهو يصلي الفجر . عندما ينحني راكعا يتمتم « سبحان ربي العظيم » .. تومض السمكة ومضتها تلك ، فيخفق قلبه خفقة رقيقة عذبة ، وتتحول صلاته بعدها ، على غير ارادة منه ، الى صلاة آلية ، لا يشاركه فيها فكره ..

والسكون يكون مسيطرا عادة في ساعة الفجر . غير ان وابور الجاز المشتعل في الغرفة ، تحت براد الشاي ، يرسل وشه المتصل فيحدث فجوة لانهائية فيه . والزوجة العجوز متربعة على بقايا الكليم العتيق ، تحملق في اللهب بعينين ذاهلتين ، وتنتظر ان يختتم صلاته فيستدير اليها .

فيما مضى ، كانت لأم فكري أحلامها ، الواضحة ، التي تدبرها وتدفئها في تلك الدقائق على لهب الوابور ، أما اليوم فانها تحملق فيه بحكم العادة .. ليس الا . فلو سئلت عما يشغلها في تلك الدقائق لارتبكت حتما ، ولاعيتها الاجابة ..

وبراد الشاي ينتظر بدوره نهاية تمتمات الرجل ليفور ، فينتشل المرأة من شرودها ، ويشد انتباه الرجل اليها . ثم يتردد في سكون الغرفة رنين الملعقة ، وهي تحرك السكر في قاع الكوبين . ويبدأ حديثهما الهادىء الهامس مع رشفات الشاي ...

هذا هو الفجر الذي تعرفه أم فكري ، ويعرفه ابو فكري . انه فجرهما .. على مدى خمس وثلاثين سنة ، امضياها معا في بيتهما بالاسماعيلية ، وخمس سنوات اخرى امضياها معا في مساكن المهاجرين بحي امبابة . أربعون سنة بحالها شهدت ما شهدت من احداث ، غيرت وبدلت ، ولكن فجرهما ـ أبدا ـ لم يتغير . علّم الاولاد ، وزوّج البنات ، وأحيل على المعاش ، وتفرق الاولاد والبنات جميعا على البلاد ، وحمل زوجته وترك المدينة مهاجرا مع اهلها ، ولم يعد هناك ما يفعله بعد صلاة الفجر .. وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد احتفظ فجرهما بكل مكنوناته التي عرفها فجرهما الاول ، وابور الكاز ، والبراد ، والحديث الهادىء الهامس مع رشفات الشاي ...

ـ حين شعرت بثقل الحداف .. ظننت انه تعلق بحجر ، فأرخيت ذراعي .. لكن الحجر تحرك .. لم يكن حجرا في الحقيقة ، بل كان سمكة ..

ويضحك الرجل ضحكة حلوة ، فيكشف عن اسنانه القليلة المبعثرة . وتبتسم المرأة العجوز ، وهي تحتضن وجهه المتغضن الطيب بنظرتها الكليلة الحانية وتهمس :

ـ كانت سمكة كبيرة ...

ـ أكبر سمكة صدتها خلال السنوات الثلاث ... صدتها عند مدخل القنال الى البحيرة .. كانت المرة الوحيدة التي جربت فيها الصيد في هذا المكان .

ـ نعم .. فقد هاجرنا بعدها ..

ـ لقد صرخت رعبا ، عندما فتحت الباب ، وفوجئت بها عند قدميك ..

ـ لم أكن رأيت سمكة في حجمها من قبل ..

ـ قال لي الخواجة دامبروزو يومها ـ وأنت تعرفين من هو دامبروزو ... لقد كان أحسن هواة الصيد في المدينة ـ قال لي : انت تستحق وساما يا رجل .. كان يظنني فيالبداية هاويا مبتدئا صغيرا.. ولكنني أذهلته بتلك السمكة ..

وتتلاشى النتف الاخيرة من ضحكته مع دخان سيجارته في جنبات الغرفة ، ثم هو يضيف في هدوء :

لقد كان هناك عيب في الميزان .. من المؤكد ان ثمة عيبا كان في الميزان .. انها لا تقل عن ثلاثة وعشرين كيلو بحال من الاحوال .

ـ كانت كبيرة ..

* * *

كثيرا ما تبادلا هذه الكلمات نفسها في سنواتهما الخمس الاخيرة. لا أحد منهما يشعر بالملل من اعادة مثل هذه الكلمات . بل ان هناك حكايات بأكملها يحفظانها عن ظهر قلب .. ولكنهما يبدوان علىاستعداد، في اية لحظة ، لان يروياها وان يسمعاها ، فتحقق فيهما الاثر نفسه في كل مرة . حكايات عن الاقرباء ، وعن الجيران القدامى الذين اختفوا من المدينة في غمضة عين ، وابتلعتهم البلاد والكفور . ذكريات لا حصر لها ، فيها الافراح وفيها المآتم ، وترتبط جميعها بالمدينة التي رحلوا عنها ..

ـ عندما طلبني المدير ، لم يكن لديّ أيـــة فكرة عن الموضوع . كنت أتناقش مع أحد الزملاء حول الرتب والعلاوات فاستدعاني اليه . كان مطرقا يحدق في خطاب كتب على الآلة الكاتبة بالانكليزية عندما دخلت .. لم يكن يقرأ الخطاب بل كان يفكر . قال لي : اجلس .. فجلست . أشعل سيجارة .. وتنهد .. ثم قال لي : لقد مرت السنوات بسرعة يا حسن .. كم سنة خدمناها معا ..؟ ان الانســـان لا يحس بالزمن الا بعد ان ينقضي . من كان يتصور انك هكذا فجأة ، بلغت الخامسة والستين . لقد أرسلت الينا الادارة العامة هذا الخطـــاب تذكرنا بذلك .. بكل أسف .

وأم فكري تعرف بالطبع بقية الحكاية .. ففي صباح اليوم التالي لبلوغ الرجل الخامسة والستين ، نهضا معا مع آذان الفجر ، وبينما كان يتوضأ حملت أم فكري وابور الجاز والبراد الى غرفتهما ، فلما انتهى من صلاته استدار اليها وهي متربعة تحملق في لهب الوابور .. وقد فار الشاي . وكلاهما يذكر انهما لم يتبادلا كلمة واحدة ، علــى غير العادة ، وهما يرشفان الشاي . وان الرجل نهض مطرقا فارتدى ثيابه كالمعتاد ، وغادر البيت في نفس الموعد ، دون ان يعلن عن وجهته. واغلقت أم فكري فمها فلم تستفسر ، فقد رأت في جانب عينه دمعـــة صغيرة جاهد ليخفيها عنها ..

وللحكاية تتمة يرويها الاثنان . ففي الموعد الذي اعتاد ان يعـــود فيه ابو فكري من عمله ، طرق الباب .. ودخل . وكان قد ألقى عـــن نفسه شيئا من أحزانه ، بل لقد بدا مشرقا في بعض اللحظـــات . قال لها قبيل الغروب في ذلك اليوم :

ـ اسمعي يا امرأة .. منذ الغد ساصبح صيادا ..

ـ صياد ؟..

ـ نعم .. صياد . سأتعـــلم الصيد بالسنارة والحـــداف . سيعلمني صديق لي . ولن تتعبي نفسك في البحث عن السمك الجيد والطازج بعد الآن . ان بحيرة التمساح مليئة بالاسماك . ولســـوف نأخذ نصيبنا منها . ساجعلك تتغــــدين سمكا .. وتتعشين سمكا .. وربما تفطرين ايضا . لن تاكلي الشبار والبساريا أبدا . من الاروس ، والدنيس ، والبوري والسهلية سيكون طعامك من السمك منذ اليوم .

وضحكت أم فكري مشدوهة في أول الامر . ولكنها ما لبثت ان وعت جانب الروعة من مشروعه ، فانتفضت حماسة وهي تناقشه في التفاصيل . كانت تبدو في سذاجة طفلة وهي تنصت وتسأل ، وتبدي الملاحظات ، في أمور السنارة والحداف وطعم السمك من الديــــدان والعجين والسمك الصغير . ولقد كان من الواضح ان الرجل تلقى درسه الاول فيها بالفعل . وكان من الواضح ايضا انه استعاد الكثير من صلابته ..

ان هذه واحدة من ذكرياتهما التي يتعاطيانها في خلوتهما في كثير من الانسجام والتفاهم . وخمس وثلاثون سنة لا شك تحمل زادا هائلا لا ينفد منها .

رفع ابو فكري وجهه بعد اطراقة طويلة وقال في مرارة :

ـ لان يبلغ الانسان سن المعاش ثم الثالثة والسبعين .. فهـذا امر مفهوم ..فعقارب الساعة لا تتراجع ، وفم الزمن لا يرد مـا التهم. ولان يموت الانسان .. فهذا مفهوم ايضا .. فالموت حق عليه . أمـا ان أكون حيا ، وأدوات الصيد كاملة عندي ، ولا أملك ان ارى البحيرة مرة اخرى .. فهذا ما لا أفهمه .. اطلاقا .. اطلاقا ..

وتتنهد أم فكري ، ثم تهمس بصوت لا يخلو من الاسى :

ـ سنعود الى بيتنا يوما ..

ـ متى ؟..

ـ ولسوف تخرج للصيد كل صباح .. كما كنت تفعل في الماضي.

ـ متى يا أم فكري ؟

ـ وستأتينا بسمكة اخرى .. اكبر من تلك الاروسة .. سمكـة بطول هذه الغرفة ..

ويدرك الرجل ان زوجته فقدت شعورها بالزمن ، وانها عـادت تحلم ، فيطرق ثانية في كآبة ، ويلزم الصمت . ونلاحظ أم فكري ان شفتيه تتحركان ، فتأبى ان تقتحم عليه أفكاره ، وتتشاغل عنه .

« انني أحس بالحياة تتسرب ذراتها من جسدي ، يوما بعد يوم. فهل يمكن ان اعيش حتى أشهد ذلك اليوم الــذي تتحدث عنه ؟.. هل يمكن هذا حقا ؟.. نعيد فتح الابواب والنوافذ .. نشعر بالدفء . أمشي على حافة جزيرة الفرسان ، كأني وحدي مالكها .. والبحيرة عند قدميّ . أجرب الصيد من جديد عند مدخل القنال .. أتأمل كثبان الرمال المضيئة على الجانب الآخر تحت أشعــــة الشمس .. ألقي بحداديفي الى المياه ، كـل صباح ، في ثقـة وباطمئنان ... هل هذا ممكن حقا ؟.. » .

نهض الرجل واقفا بصعوبة كبيرة . حاول ان يفرد عوده فطرقعت عظامه ، وأحس بالالم يفري ظهره . ان ثلاثا وسبعين سنة لمسافـــة طويلة في عمر الانسان . ولقد كان الجهد الذي بذله على طولها مضنيا، وان السنوات الخمس الاخيرة منها لهي أقساها جميعا بغير شك .

« فما من شيء يهد الانسان ، مثل الجلوس على حجر ، سنـــة بعد سنة ، لا يفعل شيئا .. سوى ان ينتظر ... » .

ان مثل هذا الانتظار لا يشبه ، في قليل او كثير ، انتظـــار السمك على شاطيء البحيرة .. بينما يكون الطعم في الماء . لقـــد كان يدرك ان الصيد فن ، ويؤمن في نفس الوقت ، ان البحر أرزاق. فكان يتقن ما يتطلبه الفن ، اختيار الطعم المناسب وتثبيته في الخطاف، وتهيئة الخيط بما يلزم من قطع الفلين .. وأثقال الرصاص ، ثم الحكمة والقوة عند القاء الحداف الى الماء .

* * *

توقف الرجل بعد خطوة واحدة خطاها ، والتفت الى أم فكري وتمتم قائلا :

ـ في مثل هذه الايام يكثر السمك البوري في البحيرة ...

* * *

كانت الساعة تمضي تلو الساعة ، وربما مر النهار كله ، مـــن غير ان يستهوي طعمه الاسماك ، الا انه لم يكن يمل ولا يتململ . فهو ، بهدوء وثبات ، يغير الطعم بين وقت واخر ، ويدخـن ،ويتبادل الاحاديث والسجائر مع خفر السواحل حـــول أمور الدنيا والدين والسمك . وربما مال بجسده في ظل شجرة على الشاطيء فتوســـد ذراعه ، وغفا دقائق ، وقد شدد قبضته على خيط الحداف . وربما تشاغل ساعات بمراقبة البواخر المسافرة وهي تعبر القنال أمام عينيه فيعد فتحاتها ومداخنها ، ويخمن عدد الركاب فيها او حمولتها مـــن البترول . لم يكن يحس بانه ينتظر أبدا . فكانت دقائق النهار كلهـا تحمل له قدرا متساويا من المتعة والراحـــة والانبساط . حتى اذا ما أتمت الشمس دورانها الى أقصى القوس ، جمع حداديفه وخيوطه في تأن ، ودسها في المحفظة التي خصها لها ، وعلق المحفظة فـــي كتفه ، وقفل راجعا الى البيت ، وقد بدأ يفكر في صيد الغد .

« ان الصباح رباح . واذا كان السمك صائما اليوم .. فلسوف يفطر غدا .. وسأعرف كيف أعد له افطارا يغريه ... » .

* * *

ركع الرجل على ركبتيه ، ودس رأسه تحت سريره ، فشد اليه صندوقا قديما من الصاج ، فالتفتت أم فكري اليـــه بكل جسدها ، وراحت تتابع حركته في اهتمام . رفع الرجل الغطاء عن الصندوق والقى نظرة متفحصة على محتوياته . أشياء مختلفة كدست فيــــه باهمال ، قطع ثياب كانت تخص الاولاد وهم صغار ، أوراق ومستندات فقدت قيمتها منذ زمن بعيد ، مفاتيح أبواب علاها الصدا ، وعدد من صحف ومجلات قديمة مهترئة لا أحـد يعلم سر الاحتفاظ بها . وتحت هذا كله ، في القاع ، كانت محفظة منتفخة من مشمع كاكي ثقيل ،

ما تزال محتفظة بشيء من رائحة السمك ..

تربع الرجل على الارض مواجها زوجته ، وفك سيور محفظته .. وأفرغ ما في جوفهـــا فيما بينهما في كومة . هكذا كان يفعـــل في الماضي ، كل فجر ، وهو يعد عدته لرحلة الصيد ..

تناول احدى علب الطعم ففتحها وألقى نظرة بداخلها . كان يعلم سلفا انه لن يجد بداخلها شيئا من الدود او السمك الصغير ، ولكنه مع ذلك ألقى نظرته تلك بداخلها ، ثم رد الغطاء عليها . وبينما كـان يجيل اصابعه بغير هدف بين معداته ، رفع عينيه الى وجه امرأتـــه فجأة وقال :

ـ ان أفضل طعم للبوري هو العجين . نضعين كتلة من العجين.. في هذا الحجم .. على السنارة ، وعليك الا تقذفينها ، وانما انت تدلينها هكذا ... في الماء .

وكانت الزوجة قد حفظت هذا الدرس من قبـــل ، فلم تعلق ، ولم يجد الرجل في نفسه ـ على أية حال ـ ميلا للاستمرار فيـــه فسكت . ولم يعد يسمع خلال دقيقة همهمة السنارات وهي ترتطم بعضها ببعض ، وبقطع الرصاص . أمسك الرجـــل بأحد حداديفه ، ففرط عنه خيطه ، ثم أخذ يلف الخيط من جديد ، في حركة متانية ، ومثلما كان يفعل في الماضي ، وهو يعد عدة الصيد ، راح يثرثر :

« ان لي أصدقاء من خفر السواحل .. كثيرا ما حدثتك عنهم .. هل حدثتك عن الشاويش مجاهد ؟!.. انه أطيبهم . كثيرا ما كنـــا نتكلم ، أنا وهو ، في ساعة راحته . كان يقبل عليّ ضاحكا ، هانفا من بعيد :

« هيه ... أنم تعثر على السمكة التي ابتلعت خاتم سليمان ؟ » فاضحك .. وناخذ في الكلام ..

ترى أين هذا الرجل الآن ؟.. لا بد انه موجود في مكان ما . لقد كان ينتظر شريطة رابعة في ذلك الحين . لعله حصل عليها ، فقد كان يستحقها . كان الشاويش مجاهـــد هو آخر من قابلت من خفر السواحل على شاطىء القنال . قابلته في ذلك اليوم ، أعني آخر يوم. جاء في الظهيرة كالمعتاد ، فجلس الى جواري ، وراح يحدثني عـــن سنوات خدمته العشرين في تلك المنطقة .. حدثني عن الصيد فـــي الماضي ، وكيف أنه كان محظورا هناك على غير الخواجات من موظفي « الكوبانية » (شركة القنال) .. كما كان محظـــورا على غيرهم ان يطأوا باقدامهم ارض جزيرة الفرسان .وكيف كان هو ـ بحكم عمله ـ له نصيب في تنفيذ هذا الحظر . ثم كيف تغيرت الاوضاع بعد ذلك .. وصار لمثلي ان يسير في هذا المكان ويصطاد فيه .

وأراد ان يجري تجربة يؤكد بها صدقه فقال :

ـ وأستطيع الآن يا حسن أفندي ، أن أمر بك الى مكان تصيد فيه ، مكان لم يسبقك اليه صياد مصري .. ولم يعد الخواجـــات يدخلونه منذ تغيرت الاوضاع .

واصر على ان ياخذني الى ذلك المكان . وهناك .. يا أم فكري.. القيت بحدافي ، وكان الطعم سمكة في هذا الحجم . هناك ، حيث يلتقي القنال بالبحيرة ، وقفت على أحجار انشاطىء ، وألقيت بحدافي بقوة لم أكن أعرف اني املكها ، فذهب الخيط بعيدا ، وغاص فـــي الماء . وما هي الا نصف ساعة ، يا أم فكري ، حتى سقطت الاروسة..

لم يصدق الخواجة دامبروزو أول الامر اني صدتهـــا بنفسي . قـــال :

ـ لا بد انها خرجت اليك بنفسها ، وقالت لك خذني . ولكنـــه كان يمزح في الحقيقة .. فقد كان يعلم انني صدتها بنفسي .. فعاد يقول انني أستحق وسأما على هذه السمكة ... » .

* * *

وخيم الصمت . وكانت أصابع الرجل قد وقعت على عقدة فـي الخيط الذي يطويه ، فتناول من بين معداته مقصا صغيرا ، فازال تلك العقدة ، وعقد الخيط عقدة جديدة . وفرط خيط حداف آخر ، وشرع يطويه ثانية في شرود ، غير انه كان قد فقد قابليته للثرثرة ، واستسلم لشعور خانق بالاكتئاب ، وبما يشبه اليأس .

وكانت الاروسة قد تحركت في أعماقه حينما أتى على ذكرها . برق جسمها بريقا خاطفا ، وخفق خفقة واهنة ، ولبثت برهة ، ثم أخذت تغوص بعيدا في القاع ، حتى لم تعد ملامحها تتضح لعينيه .

تمتم الرجل يحدث زوجته :

ـ هل تعرفين كيف تموت السمكة الكبيرة في الماء ؟.. انهـــا تنقلب على جنبها .. فتعرف الاسماك الاخرى انها ماتت .. ومن ثم تنقض عليها ..

ولكن أروسته لم تمت .. هو يعرف هذا . ويعرف انها لن تموت الا اذا أراد لها هو ان تموت ، او هذا هو على الاقل ما يعتقـــده . وقد عادت الاروسة بالفعل تطفو الى السطح ، وأطلت برأسها فـــي عناد ، وكأنها تتحداه ان يمسكها .. وتدعوه للنزال . لقد كان يظـن انه وقد صادها مرة ، فقد صادها الى الابد . ولكن ها هو ذا يواجه بالتحدي . ولاول مرة ، يداخله الشك في قدرته على أن يلمسهـا ، وها هي ذي تتلعبط ، وتتزلق الى الاغوار المضببة مرة اخرى ، ثـم تختفي تماما فلا يعود يراها . ربما كانت وهما .. ولم توجـد قط . ربما كانت قصة الشاويش مجاهد كلها من صنع خياله ... او كانت حلما !! ان خمس سنوات من القلق والتأمل المضطرب لخليقة بـــان تصنع أغرب الاوهام في رأس الانسان ...

وعلى كل ، فالرجل ما زال يصر ، حتى في أشد لحظاته يأسا ، ان قصة الاروسة صحيحة ... وكذلك قصـــة الشاويش مجاهد ... ووقوفه على الاحجار عند التقاء القنال بالبحيرة .. وذهول الخواجـة دامبروزو حين رأى السمكة .. واستحقاقه للوسام . ولكنه فـــي الوقت نفسه ، يعرف أن المهم ـ الاكثر أهمية ـ هو صيد الغـــد . ويؤكد لنفسه ، حين يتمكن منه الشك ، انه اذا لم يكن قد صـــاد تلك الاروسة حقيقة بالامس ، فهو قادر على ان يصيدها غدا .. اذا أتيح له ان يصطاد .

* * *

أعاد معدات الصيد الى المحفظة بعناية شديدة .. وحزم سيورها ووضعها الى جانبه ، فأسند راحته عليها ، ونظر الى زوجته وقـال في هدوء :

ـ كل شيء جاهز الآن ..

فابتسمت زوجته ابتسامة خفيفة ، غير انه لم يبتسم ، ولـــم يتجهم ايضا .. وضم ركبتيه الى صدره ، وأراح عليهما راســـه ، ولبث صامتا ، كأنما ينتظر ان يتلقى دعوة ، في هذا الصباح نفسه ، لان يخرج للصيد في بحيرة التمساح ...

القاهرة — محمود دياب